

خطبة الوداع

في مكة، في بداية الإسلام، كانت الدعوة إلى نشر الإسلام بخطب موجزة، كما أنها كانت تعتمد على الدليل والحجة.

حتى انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ففُرضت الخطابة، وكان لا يزال يخطب في الأحداث التي تلم بالمسلمين، وفي أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات.

ومن أروع خطب الرسول صلى الله عليه وسلم ما قاله في خطبة الوداع:([1])

حجَّ النبي صلى الله عليه وسلم حجته الوحيدة في السنة العاشرة للهجرة، واصطحب معه أهله وأصحابه، وانضم إليهم في الموسم ما يزيد على مائة ألف مسلم. وفي يوم الحج الأكبر وقف النبي صلى الله عليه وسلم يخطب الناس، وفي كلامه لهجة المودع، فكانت آخر خطبة له، وكان يسأل الناس عقب كل مقطع بلازمة وداعية: "ألا هل بلغت؟"، ثم يقول: "اللهم اشهد". وقد توفي النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه الحجة بثلاثة أشهر، فسميت خطبة الوداع.

النص:

"الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم، عباد الله، بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد: أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإنني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة([2])، غير السدانة([3]) والسقاية([4]). والعمد قود([5])، وشبه العمد ما قُتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس، إنما النسيء ([6]) زيادة في الكفر، يُضل به الذين كفروا، يُحلونه عامًا ويُحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله.

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض. إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات وواحد فرد؛ ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

إن لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهن حق. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يُدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة. فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن ([7])، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح. ([8]) فإن انتهين وأطعنكم، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوان ([9])، لا يملكن لأنفسهن شيئًا. أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرًا. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت؟ فلا ترجعن بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض. فإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأدم، وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير. ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

قالوا: نعم.

قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس، إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر. ([10]) من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ([11]) ولا عدل. ([12])

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

الأحكام التي اشتملت عليها الخطبة

1- الدعوة إلى التوحيد الخالص والإيمان الكامل.

- 2- حرمة الأموال والدماء وقداستها؛ فمن أكل مال مسلم أو سفك دمه، فكأنما انتهك حرمة يوم عرفة، في الشهر الحرام، وفي البلد الحرام.
- 3- أداء الأمانة إلى أهلها.
- 4- إلغاء الربا وثارات الجاهلية وتراثها، غير خدمة البيت الحرام وسقاية الحجيج.
- 5- إن القاتل عمدًا يُقتل، والقتل شبه العمد يكون بأداة غير حادة، وفيه دية مغلظة مقدارها مائة من الإبل.
- 6- تأكيد حقوق المرأة ورعاية الحقوق الزوجية.
- 7- التحذير من فتن الشيطان.
- 8- الدعوة إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله.
- 9- تبليغ الرسالة للناس كافة.

تعليق

خطبة الوداع من أعظم الخطب في أدبنا، وقد امتازت بما يأتي:

- 1- الإيجاز البليغ: الذي يجمع المعاني العظيمة الواسعة في الألفاظ القليلة دون إخلال بها.
- 2- لهجة المودع: سواء عند افتتاحه، أم عندما يشهد الله على أنه بلغ الرسالة.
- 3- البساطة في الألفاظ: وذلك لأن الخطبة تعليمية، والأسلوب التعليمي يجب أن يخلو من الصعوبة والتعقيد والتكلف؛ وبذلك خلت من الغريب النافر والمستكره الحوشي.
- 4- حلاوة النعمة وجمال التقسيم في الجمل: مع وقوع بعض السجع من غير تكلف أو إكثار.
- 5- التأثير بالقرآن الكريم والانتفاع به: فجميع الأحكام التي أوردتها مستمدة من كتاب الله، واقتبس منه في ثلاثة مواضع: قوله: "لكم رؤوس أموالكم"، و"منها أربعة حرم"، و"فإن خفتم نشوزهن".

وهذه الخطبة وغيرها تصور، في دقة، حسن منطق الرسول صلى الله عليه وسلم في خطابته، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع، ولا يلفظ بغريب. وقد وصف الجاحظ بلاغته في خطابته أدق وصف، فقال إنه:

"لم يسمع الناس بكلام قد أعم ولا أقصد لفظًا، ولا أعلى وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أقصى معنىً، من كلامه صلى الله عليه وسلم."

ومن صورها البيانية: "لا يوطئن فرشكم"، و"تحت قدمي هذه".

الحواشي

[1] البيان والتبيين: 31/2.

[2] موضوع: ساقط ومحرم.

[3] السدانة: خدمة الكعبة.

[4] السقاية: سقاية الحجيج.

[5] القود: قتل القاتل بمن قتل.

[6] النسب: شهر المحرم، كانوا يحرّمونه عامًا ويحلّونه عامًا آخر.

[7] تعضّلوهم: تضيقوا عليهم.

[8] غير المبرح: الخفيف.

[9] عوان: جمع عانية، وهي الأسيرة؛ أي كأنهن أسيرات.

[10] الفراش: لصاحبه، وللعاهر الحجر: إشارة إلى الرجم، أو أنه مقضي به رغم أنفه.

[11] الصرف: التوبة.

[12] العدل: الفدية.

صححت كذلك الأخطاء الظاهرة مثل: الدعوة الى ← الدعوة إلى، أصطحب ← اصطحب، انفسنا ← أنفسنا، واشهد ← وأشهد، اما بعد ← أما بعد، لكم ← لكم، لا ادري ← لا أدري، أخوة ← إخوة، وغن أباكم ← وإن أباكم، مال أخيه ← مال أخيه، فغن ← فإن، مع تنظيم الفقرات وعلامات الترقيم.